اللغة والفكر
بين حدود التعالق والانعكاس

صحراوي بونوالة

جامعة ابن خلدون _ تيارت_

الملخص

إنّ العلاقة بين اللغة والفكر قد شغلت بال العديد من علماء اللغة ، والفلاسفة ؛ فاعتقد البعض منهم أن هناك تطابقا مطلقا بينهما ، ولا وجود لأفكارٍ لا تستطيع اللغة التعبير عنها ، واعتقد آخرون أن هناك انفصالا بين اللغة والفكر ، مما يلزم عنه إمكان تواجد أفكار تعجز اللغة عن التعبير عنها وتوصيلها للغير ، ففي اللغة والفكر حدود للتعالق والانعكاس ، يرى اللغويون أن اللغة والفكر متلازمان تلازماً مطلقاً، فلا يتأتى التفكير مجرداً من اللغة، ولا اللغة مجردة من غير فكر. فمفردات اللغة هي علامات حسية على الأفكار، وهذه الأفكار هي معناها المباشر،فاللغة هي وسيلة المواصلات للفكر، أو هي التمثيل الطبيعي والخارجي لحالة داخلية، فهي عبارة عن سلسلة من الكلمات عن تفكير كامل.

Résumé

Plusieurs philosophes et linguistes ont fait des recherches sur le lien qui existe entre la langue et la pensée. Quelques-uns ont trouvéque la pensée ne peut exister sans pouvoir s'exprimer par le langage, d'autres savants ont cru que la langue et la pensée étaient dissociables car le langage ne peut pas exprimer tout ce que l'on pense et transmettre les idées aux autres. La pensée et la

Les linguistes trouvent que l'on ne peut pas exprimer une pensée sans la transmettre sous forme de mots

المنارة للاستشارات

www.mana

(la langue) et on ne peut exprimer un langage sans la pensée. La langue est un moyen de communication par la pensée comme elle est l'expression spontanée des différentes langue ont ainsides limites dans leur similitude et leur dissociabilité. situations.

لقد كان العربي في الجاهلية يتحدث بلغة عربية فصيحة ، وذلك دون أن يعلم بقواعدها النحوية والصرفية أو عروضها إن كان شعرا، ولما جاء الإسلام وجد هذه اللغة على درجة رفيعة من الفصاحة والبيان في الشعر والنثر، بيد أنَّها في حدود قبليَّة ضيقة، ثُمَّ اجتباها الله لتكون لغة الإسلام ولسان القرآن الكريم، كما قال الله عز وجل: (نزل به الرّوح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربيّ مّبين)(1)

وبذلك تجاوزت اللغة حدود القبيلة والقوم وارتبطت بالإسلام فكانت لغة عقيدته وشريعته وخطابه إلى جميع البشر، وسارت <<في ركاب الدعوة أينما ذهبت؛ لأنَّ القرآن الكريم كان في أيدي جند هذه الدعوة، وكان المسلمون كلما غلبوا على إقليم تركوا فيه القراء والمحدثين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلمون الناس أمر دينهم، ويدعون أهل البلاد للدخول في حوزة الإسلام.>>(📄)

وعلى الرغم من عدم فرض اللغة على الشعوب الإسلاميَّة الأعجمية إلاَّ أنَّها تمكنت في ألسنة الأقوام من بلاد الشام والعراق وما وراء النهر و فارس والهند وأنحاء واسعة من القارة الآسيوية وجزء واسع من إفريقيا ...إلخ وعلى هذا المنوال لاحظ الباحثون <<في اللغات المقارنة تأثير اللغة العميق في سائر اللغات المنتشرة في العالم الإسلامي، ولاحظوا كذلك دخول كثير من مفرداتها في اللغات الأوروبية>>(3) ومِمَّا لفت نظرهم <<لأول مرَّة في تاريخ اللغات تحدث ظاهرة

المنارة للاستشارات
www.mana

عجيبة وهي أن لغة من فصيلة معينة تؤثر في لغة من فصيلة أخرى تأثيراً بعيد المدى.>>(4)

وهذا قد ساعد على ترسيخ اللغة ونشرها بفعل حركة الترجمة التي بلغت أوجهًا في عهد (المأمون) وحققت للغة العربية في بعض جوانبها كما قال أحد المفكرين: <<حضارة واحدة عالميَّة المنزع، إنسانية الرؤية وذلك لأول مرة في التاريخ، وفي ظل القرآن الكريم أصبحت العربية لغة عالميَّة، واللغة الأم لبلاد كثيرة، قد عمت المنطقة التي عرفت في ماضيها التأثير السامي فعوضت بيسر اللغات الساميَّة التي كانت شائعة فيها.>>(5)

وبالتقادم لم يبق الحال على ما كانت عليه هذه اللغة ، حيث اقتضى الأمر أن يطلع العربي على العلوم الأخرى ، وذلك عندما امتزج العرب بغيرهم ؛ فصار على العربي أن يتعلم العربية كما هو الشأن لغير العربي وذلك من خلال علومها الموضوعة أصلا من أجل ألفاظ عليها .

يقول ابن خلدون (ت 808ه):<<إن اللغة هي ملكة في ألسنتهم يأخذها الآخر عن الأول كما تأخذ صبياننا لهذا العهد لغتنا، فلما جاء الإسلام وفارقوا الحجاز لطلب الملك الذي كان في أيدي الأمم والدول وخالطوا العجم، تغيرت تلك الملكة بما ألقى إليها السمع من المخالفات التي للمستعربين، والسمع أبو الملكات، وخشي أهل العلوم منهم أن تفسد تلك الملكة رأساً، ويطول العهد بها، فينغلق القرآن والحديث على المفهوم، فاستنبطوا من مجاري كلامهم قوانين لتلك الملكة.>>(6) وهكذا يكون الدين هو المحرك الأول في نشأة العلو العربية وطلب تعلمها على قدر واسع وقد عدّ ابن خلدون معرفة،علوم اللسان العربية ضرورية على أهل الشريعة ؛ إذ ماأخذ الأحكام الشرعية كلّها من الكتاب والسنة ، وهي بلغة العرب ، ونقلتها من الصحابة والتابعين العرب وشرح مشكلاتهم ،ويرى الدكتور **محمود السيد** أنّ<< مفهوم اللغة مفهوم شامل وواسع،لا يقتصرعلى اللغة

المنارة للاستشارات
www.mana

المنطوقة،بل يشمل المكتوبة أيضا، ًوالإشارات، والإيماءات، والتعبيرات الوجهية التي تصاحب عادة سلوك الكلام.>>(7)

مفهوم اللغة :

اللغة ظاهرة بسيكولوجية اجتماعية ثقافية ، لا صفة بيولوجية ملازمة للفرد . تتألف من مجموعة رموز صوتية لغوية ، اكتسبت عن طريق الاختيار ، معاني مقررة في الذهن . وبهذا النظام الرمزي الصوتي ، تستطيع جماعة ما أن تتفاهم وتتفاعل. ولأجل هذا قال ابن جني عنها :<< أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم>>(8) كما يمكن اعتبارها نسقا من الإشارات والرموز ، يشكل أداة من أدوات المعرفة ، بوصفها من أهم وسائل التفاهم والاحتكاك بين أفراد المجتمع في جميع ميادين الحياة . وبدون اللغة يتعذر نشاط الناس المعرفي . كما أنها وسيلة للربط بين الأمم عبر الأجيال إذ أنها <<ساعدت على إثراء العقل البشري بما تطور من علوم ومعارف بوصفها أداة توصيل وحفظ ، لما اكتشفه الإنسان في هذا المجال أو ذاك.>>(9)

كما تعد اللغة من جهة أخرى<<مؤسسة اجتماعية أو نتاجا لقوى اجتماعية وهي قواعد وقوانين تجريدية مستقرة في الدماغ. >> (10) أي أن اللغة ظاهرة اجتماعية لا يستغني عنها المجتمع الإنساني فهي فطرية فيه ومكتسبة بفضل القدرات والقوى الذهنية للإنسان فهي قواعد وقوانين كامنة في العقل تمثل الكفاءة الضمنية . فاللغة هي قواعد نحوية و قوانين اجتماعية مستقرة بشكل تواضعي قي أدمغة الناطقين باللسان الواحد.

فالفرد حينما يتكلم كلاما عاديا فإنه يلتزم بلغة الجماعة ويخضع لنظامها في المفردات والتراكيب والأساليب وبمدلولات الألفاظ ، ولا يمكنه الخروج عن هذا النظام المتواضع عليه إذا أراد أن يحقق وجوده ضمن مجتمعه ، ولو أراد الخروج عن النظام اللغوي للمجتمع ؛بأن يخترع لنفسه لغة خاصة لوجد نفسه خارجا عن جماعته . إن لغة الكلام العادي تؤدي وظيفتها كاملة بنقل الأفكار

المنارة للاستشارات
www.mana

من المتكلم إلى السامع محققة ذلك التواصل بين الطرفين،والأمر ذاته في ميدان الحياة العلمية ، وإذا كان الفرد العادي يتقيد في حياته العامة بلغة الجماعة،ويخضع لنظامها وقوانينها ، فإن فردا آخر غير عادي يتعامل مع اللغة بطريقة غير عادية ، لأن له عالما خاصا هو عالم الفن والأدب الذي يفسح له المجال، ويعطيه قدرا من الحرية الفنية في استخدام اللغة ، << فمع التزام الأديب بلغة الجماعة وقواعدها وأصولها،ومع رعايته لقوانينها العامة فهو حر بحدودها ما يبدع و يبتكر في استخدام هذه اللغة، ويملك من أمرها ما لا يملك الإنسان العادي من أمر لغته >> (11) ، فتعامل المبدع مع اللغة متميز عن تعامل الفرد العادي، وهذا التميز يحققه بأسلوبه الخاص الذي يبرز من خلاله قدراته الإبداعية التي لا حدود لها.

واللغة على مافيها من حياة نابضة ، هي في الوقت نفسه وفي الكثير من المناحي مادة ميتة كامنة في الذاكرة ،وقابعة في بطون المعاجم والذي يمنحها الحركة والحياةهو المبدع والقاريء ، وبما أن الإنسان يستطيع أن يخترق النظام اللغوي إذا كان مبدعا ، وذلك من أجل إقامة بنيان جميل ، باجتهاده في التصرف في نظام الألفاظ متميزا بأسلوبه ؛ إذ إن << اللغة والأسلوب يتضافر كل منهما مع صنوه: فأما أحدهما فبحكم ماديته ، وما فيه من قدرة عجيبة على التبليغ ، وأما أحدهما الآخر فبحكم طبيعة تركيبه ، وما فيه من طاقة جمالية، بديعة لا تنفذ>>(12)،والمبدع لايستطيع أن يعبر عن ذاتيته ولا يحقق الأصالة والابتكار << إلا إذا أدهشنا بعلاقات لغوية جديدة غير متوقعة أو مألوفة >> (13)وبذلك تصبح علاقة المبدع باللغة علاقة ذاتية وليست علاقة اجتماعية ، بل إنها تسعى إلى تحطيم القيود التي فرضها المجتمع على اللغة >>(14)، لأن الشاعر ليس هدفه هو التواصل أو التعبير عن المعنى والغرض بقدر ما هو تحقيق التشكيل الجمالي .

المنارة للاستشارات
www.mana

ولهذا نجد اللغة تؤدي عدة وظائف ، من خلال التعبير والتعامل بين الأفراد ومنها :

الوظيفة النفسانية: هي أن اللغة آلة للتحليل والتركيب أو هي وظيفة التعبير بالنسبة لعلماء آخرين وهذه الوظيفة تتمثل في أن الإنسان يستطيع أن يحلل العبارات الموجهة إليه إلى رموز هذه الرموز تحيل إلى معان وبذلك تكون اللغة أدت وظيفة التواصل والتعبير وتحقيق الذات .

أما الوظيفة الثانية :هي الوظيفة العملية : أي أن اللغة أداة للتخاطب بين الأفراد وتعتبر هذه الوظيفة حيوية باعتبارها ملازمة للغة فهي تمكنه _الفرد _من التواصل مع غيره للتعاون من خلال تصويب أفكاره وضبط خطواتها .إن هذه التفرقة بين الجانب الفكري و العلمي لوظيفة اللغة هامة جدا لأنها نتجت عنها ظهور دراسات حول علاقة اللغة بالفكر التي أصبحت الدراسات الحديثة منصبة عليها بكثرة وذلك لبيان العلاقة بينهما ، فاللغة هي الوجه الآخر للفكر والعكس لأن اللغة هي أداة للتعبير عمّا نفكر فيه،وكذلك هي سبيل لنقل الخبرات والمعارف والمنجزات عبر الأجيال . كذلك انبثق عن هذا الجانب النفعي للغة ما يسمى ب :"علم اللغة الاجتماعي"

وهو<<فرع حديث نسبيا من فروع علم اللغة التطبيقي >>(15) يهتم بدراسة الجانب العملي من الكلام ومستوياته المختلفة (كلام رسمي ،غير رسمي)مع مراعاة السياقات في ذلك. <<اعلم أن اللّغة في المتعارف هي عبارة المتكلم عن مقصوده وتلك العبارة فعل اللسان ،فلا بد أن تصير ملكة متقررة في العضو الفاعل لها هو اللسان وهو في أمة بحسب اصطلاحاتهم >>**(16)** فحسب "ابن خلدون <<أن اللغة هي تلك الاصطلاحات المتعارف عليها تستعمل لأجل التعبير واللسان هو الأداة التي تستعمل في الكلام ،فهنا نجده بأنه أعتبرها ملكة ثابتة في هذه الأداة_اللسان _وهذه الملكة تختلف باختلاف الشعوب ،ونجده أيضا عبر عن اللغة باستعمال مفردة لسان .وهنا اللسان يعبر عن اللغة>>(17) .أما

المنارة للاستشارات
www.mana

العلماء الغرب فنجد تشومسكي : يعرف اللغة بأنها<< ملكة فطرية عند المتكلمين بلغة ما لفهم وتكوين جمل نحوية>>(18) أما إدوارد سبير :عرّفها بقوله :<<اللغة ظاهرة إنسانية وغير غريزية لتوصيل العواطف والأفكار والرغبات عن طريق نظام من الرموز الصوتية الاصطلاحية>>(19).

تعتبراللغة هاجس المبدع الأول والأخير في علاقته بها وفي علاقتها بالعالم وأشيائه وفي علاقتها مع ذاتها، فهل يمكن اعتبارها مجرّد وسيلة تعبيرية، إبلاغية، توصيلية، وظيفتها نقل الواقع بمظاهره ومفاهيمه وإشكالاته فكيفية تعامل المبدع مع اللغة تُولّد فرادة وتميّز العمل الأدبي، فالفرق الجوهري بين المبدع والإنسان العادي كامن في خصوصيّة التعامل مع المادة اللغوية أساسا، والكاتب المبدع هو منتج كلام يمتلك القدرة على صناعته وتشكيله وبالتالي ابتكار المعنى إنّه <<يجعل من اللغة سحرا ينفذ إلى كل شيء.>>(20) فاللغة وحدها قادرة على منح العمل الأدبي شرط وجوده وبقائه.

ومن هنا ارتبط مفهوم الإبداع، بالتجاوز والخلخلة والمفاجأة، ورفض الثابت فالمبدع دائب البحث

عن << اللغة التي تفلت من رقابة الوعي فتظهر طاقة إبداعية، كثيرا ما يهدرها الوعي.>>(21)

والكاتب المبدع لا يكتف بلغة معيارية، مألوفة وصفية جاهزة، بل يعمل على إبداع لغته الخاصة لكي يشعر في <<النهاية بإحساس المبدع، ما دام الوجود قد فرض عليه.>>(22)

وإذا اعتبرنا الإبداع تجاوزاً وتجديداً يهدف إلى تطوير وإغناء التجربة الفنيّة بالدرجة الأولى، فهذا يعني أنّه <<يتضمّن اختيارا، لأنّ من يبدع يتخلى عن شيء، ليتبنى آخر غيره، لكن هذا التخلي لا يعني الرفض بقدر ما يعني البحث عن قبول جديد.>>(23) فاللغة ترتبط بالإبداع بشكل وثيق، لأنها<<فوق التاريخ، وقبل

المنارة للاستشارات
www.mana

الفلسفة، ذلك بأنّها هي مادة الإبداع، وهي أساس المعرفة، بالمعنيين الفلسفي والعام.>>(24)

وبالرجوع إلى المبدع الذي يهدف إلى ابتكار لغته الخاصة التي تنبع من عمق الواقع بلغته اليومية العادية وتحيد عنهما في الوقت نفسه متجاوزة كلّ ما هو مألوف مبتعدة عن التكرار الآلي، إنّها لغة الائتلاف من أجل الاختلاف، فالأدب لم يعد <<يُتذوق على أنّه دائرة مغلقة، وطبقة اجتماعية خاصة، ولكن على أنّه كتلة متماسكة، عميقة، مملوءة بالأسرار تحمل رائحة الحلم والتهديد معا.>>(25) ولهذا يمكننا القول بأن الفرد يتعامل مع اللغة بطريقة غير عادية، لأن له عالما خاصا هو عالم الفن والأدب الذي يفسح له المجال، ويعطيه قدرا من الحرية الفنية في استخدام اللغة، فمع التزام الأدب بلغة الجماعة وقواعدها وأصولها، ومع رعايته لقوانينها العامة فهو حر بحدود ما يبدع ويبتكر في استخدام هذه اللغة، ويملك من أمرها ما لا يملك الإنسان العادي من أمر لغته. ومن ثم تجعل عملية التفكير ممكنة بتنظيمها للواقع بمختلف تجلياته ومعطياته.

إن تعامل المبدع مع اللغة متميز عن تعامل الفرد العادي ، وهذا التميز يحققه بأسلوبه الخاص الذي يبرز من خلاله قدراته الإبداعية التي لاحدود لها. ويعتبر الأسلوب الذي يعبر به المبدع العمود الفقري ، والقالب التعبيري الذي يحمل المظهر الجمالي لعطاء اللغة منفردة الألفاظ، << فالأسلوب في جماليته وتناسقه وتفرده إنما هو ثمرة من ثمرات تعاطي اللغة وازديانها وتفاعلها وما يقع بين ألفاظها من ملاعبة في نظام نشاطها الطبيعي الذي يمكن تشبيهه بحركة الصبي العشوائية التي لا تلبث أن تغتدي مفهومة بل ربما ذات دلالة بعيدة .>>(26) وإذا اعتبرنا أن اللغة ظاهرة اجتماعية ، فنجد هناك استعمالين مختلفين لهذه اللغة،<< استعمال جماعي واستعمال فني>>(27)، وبهذا الخير يختلف تعامل الفرد مع (المبدع) مع لغته التي ينتج بها إبداعه؛ إذ أن<<ماهية الشعر هي كيفية خاصة في التعامل مع أداة عامة هي اللغة ، وتتبدى هذه الكيفية في طرائق مخصوصة تؤلف

المنارة للاستشارات
www.mana

بين الكلمات وتنظيمها للوصول إلى أنظمة وأنساق وتراكيب وأبنية تفجر الطاقة الشعرية.>>(28)

إذن فاللغة للمبدع غيرها للمتكلم فإذا كانت للمتكلم تعتبر وسيلة عملية يهمه منها مدلولها الإشاري، في حين أنها للمبدع مقصد الجمال والخلق اللغوي ، ولذلك فإن من يرتبط بين الأسلوب والمبدع ، فإن هذا الربط يكون على أساس<< أن الأديب هو المبدع الخلاق الذي يعشق الألفاظ ، ويحسن التعامل معها بجمالية راقية،أو قل إن شئت: إن الأديب متفنن يرسم بالألفاظ<<(29)

فالتجربة الإبداعية تتطلب وعيا لغويا، فنيا وجماليا كبيرا، كونها نابعة من موقف ذاتي، متمرد، ثائر، رافض، لما هو كائن؛ وموقف وجودي قلق وحائر ومتوتر، متسائل، وموقف إنساني منفتح على الذات والآخر، متحاورا معهما، ففي إطار التجربة الإبداعية الحداثية <<لا يكتب المبدع كما يتكلم، بل يتكلم كما يكتب، إنّه يتجاوز لغة الكتابة، بحسب الكلام، إلى اللغة الجديدة: لغة الكلام بحسب الكتابة.>>(30)

ومن هنا نجد قبل الإبداع تأتي معرفة اللغة وقواعدها، وأسرار نظمها، ونظامها النحوي والصرفي، لكن هل يبقى المبدع أسيرا للغة لحظة إبداعه. بحيث يتقيد بنحوها وصرفها، ويقلد مقولات الأقدمين واستخداماتهم اللغوية؟ <<هذا أمر يصعب عليه كثيرا، فهو يترك للحظته الإبداعية خلق صورة لغوية جديدة، قد تكون غير مألوفة فيما سبق من أقوال. وقد يتخطى نظام اللغة بكل تفاصيله. وهو بذلك ليس ثائرا على اللغة، أو غير معترف بقواعدها، لكنه بالتأكيد متجاوز للمألوف منها، وهنا يكمن سر الإبداع.>>(31)

وبناء على ما سبق في سر الإبداع، إنه عمل أدبي يقول أحمد الشايب :<<
وأما اختيار الأفكار وتنسيقها وإيثار الكلمات الدقيقة، والجمل الواضحة، فذلك عمل أسلوبي، لأنه طريقة يقوم بها الكاتب متأثراً بموضوعه من جهة، وبشخصيته من جهة أخرى.>>(32) وهذا ما توصل إليه كثير من الباحثين

المنارة للاستشارات
www.mana

من أن<< اللغة قائمة هائلة من الإمكانات المتاحة للتعبير ، ومن ثم فإن الأسلوب اختيار يقوم به المنشئ لسمات لغوية معينة ، بغرض التعبيرعن موقف معين ، ومجموعة الاختيارات الخاصة بمنشئ معين تشكل أسلوبه الذي يمتاز به. >>(33)

إنّ المبدع –بطبعه- تواق إلى تجاوز المفاهيم الجاهزة والنماذج المعيارية رغبة منه في ابتكار ما من شأنه أن يحدث المفاجأة ويثير الدهشة والإعجاب، كما يحقق الإمتاع والإقناع، ويحرّك الثابت ويتجاوز المرجعية الأحادية مستعملا في كلّ هذا أداته الوحيدة؛ أي اللغة، فحين <<أسمي(باللغة) شيئا، أهيمن عليه وأملكه، لأنّني أكون قد عرفته، فالمعرفة قوّة، قوّة امتلاك، وقوة تخيّل>>(34) وهذا ما يجعل اللغة في <<حركة محاورة وتفاعل وتجاوز.>>(35) إنّ قدر المبدع<< محكوم بالعمل على ملاحقة ما لم ينجز بعد، وبالتالي فهو يسهم، في رفد النظام اللغوي بطاقات جديدة في التعبير وطرقه.>>(36) فتوشك <<الألفاظ أن تتنفس معه، وأن تكون أبعادا وجدانية وإيحاء غامضا لا أدوات تقرير وتفسير.>>(37)

إنّ رصد حركية تطوّر وتجدد اللغة تبعا لطبيعة التجربة الإبداعية يقتضي أن تدرس اللغة في تنوّع وظائفها وتعدّد مستوياتها واختلاف أساليبها إذ أنّه من غير <<المعقول في شيء، بل ربما من غير المنطقي، أن تعبر اللغة القديمة عن تجربة جديدة .. إنّ كلّ تجربة لها لغتها، وإنّ التجربة الجديدة ليست إلاّ لغة جديدة، أو منهجا جديدا في التعامل مع اللغة.>>(38) فهذه العناية باللغة صاحبت الشعر منذ الجاهلية، إذ إن الشعراء ومنذ القدم كلامهم يتميز عن كلام غيرهم، والشاعر يدرك أن الشعر صناعة وفن، وأن هذه الصناعة تقتضي التفنن والمهارة، وبالتالي هو يجمع في شعره كل ما احتوته الألفاظ من قوة التعبير والتصوير والتأثير. فاللغة هي عنصر مهم من عناصر الشعر ، ولابد للشاعر أن يسلك فيها مسلكا خاصا ليؤدي معانيه بطريقة تختلف عما هي عليه في غير الشعر.وهذا معناه أن يختار

المنارة للاستشارات
www.mana

فيتحرى الجميل المناسب والأنيق الحسن، ولم يسلم من هذا الاختيار وهذا التأنق للشعراء الأقدمون.

علاقة اللغة بالفكر:

إن النظام اللغوي يتكون من الكلام في جانبيه الرمزي والمفهومي ومن أشكال غير مستقرة ، فالكلام متضمن للنظام وملزوم له ، وعليه فإن اللغة بكونها نظاماً ونسقاً خفياً يحقق مبدأ الفصل والاستقلالية عن الأحداث (الكلام) ، والكتلة الاجتماعية المنجزة للكلام والأحداث التاريخية والاعتبارات الثقافية ، ولهذا النظام مع الاستقلالية السيطرة على الكلام في جانبين متلازمين أحياناً ، هما الرمز والمفهوم ، وتغييب المشير والمشار إليه ، وأحياناً يلتزم بالسيطرة على الرمز فقط ويغيب المفهوم والمشار إليه ، ويصل الأمر إلى درجة الموازاة بين نظامين يحاكي كل منهما الآخر<< فطلب النظام وشبه الألفاظ بالمعاني يبين لنا شَبَهَ الألفاظ بالمعاني ، وتحاكي الألفاظ المعاني التي ليست تكون بها العبارة ، ويجري ذلك بعينه في تركيب الألفاظ فيحصل تركيب الألفاظ شبيهاً بتركيب المعاني المرَّكبة الَّتي تدلُّ عليها تلك الألفاظ المركبة ، ويجعل في الألفاظ المركبة أشياء ترتبط بها الألفاظ بعضها إلى بعض متى كانت الألفاظ دالة على معانٍ مركَّبة ترتبط بعضها ببعض ، ويُتحرى أن يُجعل ترتيب الألفاظ مساوياً لترتيب المعاني في النفس .>>(39)

هذه الممارسة على صعيد الفصل بين اللغة والفكر تصبح اللغة وهي المادة الخام مستقلةً عن الممارسة على الصعيد الاستعمالي لكونها نظاماً قائماً بنفسه ، والكلام قائم بغيره يتفرَّعُ عنه أشكالٌ غير مستقرةٍ منفصلةً في رمزيَّتِها على مفاهيمَ تحتاج ذلك النظامَ ، ولذلك حدَّد سوسير مهمة عالم اللغة وهي <<أن يدرس اللغة لا الكلام ؛ لأن دراسته للغة هي التي تمكنه من فهم المبادئ التي تقوم عليها وظائف اللغة عند التطبيق فمن الممكن أن تدريس اللغة حسب محورين مختلفين تمام الاختلاف إذ يمكننا أن ندرسها باعتبارها نظاماً يؤدي وظيفته في لحظة من اللحظات ، أو باعتبارها مؤسسة تطورت عبر الزمن ، فكان سوسير يحبذ دراسة

المنارة للاستشارات
www.mana

اللغة باعتبارها ظاهرة متزامنة في مقابل الدراسات التي تتناول اللغة باعتبارها ظاهرة متتابعة.>>(40)

ولهذا اعتبر بعض النقاد أن اللغة ليست أصواتا، ورموزا، ومواصفات، وتراكيب فقط، بل هي منطق،وأسلوب تفكير، ورؤية للحياة. وهي أداة أساسية للعلاقات الثقافية الخارجية، حيث تملك كل المقومات التي تؤهلها. فهي منهج ونظام للتفكير، والتعبير، والاتصال، إنها علاقة دالّة بين المعاني والألفاظ، بما يشكل نظاماً ونسقاً خاصاً، له قوانينه الداخلية الخاصة.>>(41) وهي أيضا <<سمة إنسانية لجنسنا البشري، فهي خاصة إنسانية، لاتعبّر فقط عن الأفكار بل تشكّلها. والتفكير ليس إلا لغة صامتة. واللغة تولّد الفكر.>>(42)

فاللغة والفكر، قد دارحولها نقاش طويل بين علمائنا القدامى ، ولعل أبرز من شارك في ذلك النقاش علماء الكلام، فلم يفرقوا بين اللغة والفكر بل عدوهما أمراً واحداً، ذلك أن الكلام أواللغة في تصورهم هي معان قائمة في النفس، وبمعنى آخر أنّ العملية اللغوية جزء لا يتجزء من العملية الفكرية، وأن<< العملية اللغوية بجانبها البارز وهوالجانب الصوتي منها ليس سوى إمارة على البعد الحقيقي للعملية اللغوية الذي يكمن في الجانب الفكري(المعنى القائم في النفس.>>(43) هذا في رأي بعض العلماء ،ولكن هناك علماء كانوا يعتقدون إن<< الكلام كائن حسي مكون من الحروف المنظومة والأصوات المقطعة المسموعة .>>(44)

أما بالنسبة للدراسات المعاصرة فإن فهمها للعلاقة بين اللغة والفكر، هناك أكثر من رأي، وأكثر من نظرية، ووجد بعضهم صعوبة بالغة في محاولته وضع حدود فاصلة بين اللغة والفكر، ونراه يتساءل :<< هل هناك فواصل طبيعية بين الظواهر التي تشتمل عليها لفظة(اللغة) وظواهر أخرى نخص فيها ما نطلق عليه الثقافة والفكر؟ وسوف نصل مرة أخرى إلى إجابة معقدة إلى حد ما.>>(45) فمن خلال الكلام السابق، فإننا نكتشف أن اللغة والفكر قد اختلف في علاقتها،

المنارة للاستشارات
www.mana

العديد من العلماء القدامى والمعاصرين، وكل هذا راجع إلى النظرة العقائدية، التي كان يختلف فيها العلماء،وفي هذا الصدد يقول واطسون :<<إن التفكير هو اللغة وبناء على ذلك فإن التفكير عبارة عن تناول الكلمات في الذهن أو إن التفكير عبارة عن عادات حركية في الحنجرة أو هو حديث داخلي يظهر في الحركات قبل الصوتية لأعضاء الكلام، أي إن التفكير كلام ضمني.>>(46)

لقد قدمت الدراسات المعاصرة عدة نظريات،حول العلاقة بين اللغة والفكر ومن بين هذه النظريات: استقلالية اللغة عن الفكر، واعتبروه استقلال نسبي وترى هذه النظرية، <<أن اللغة وان كانت غير الفكر من حيث طبيعتها ووظيفتها ومن ناحية نشوئها التاريخي، إلا إنها مع ذلك ملتحمة به التحاماً عضوياً غير قابل للعزل في مجرى تطور النوع الإنساني ... فاللغة والفكر جانبان مشتركان ملتحمان ومتكاملان وإن كانا متميزين في عملية واحدة أو كيان متماسك موحد.>>(47) كما نجد نظرية تقرأن العلاقة بين اللغة والفكر <<تصبح آلية ميكانيكية على غرار علاقة الإناء بالسائل الذي يملؤه .فأصحاب نظرية العزل يجردون التفكير من جميع ارتباطاته الحسية المادية باللغة وينظرون إلى كل منهما بمعزل تام عن رفيقه، ولكنهم يضطرون تحت ضغط الرابطة التي يلاحظونها بينهما بالفعل إلى تفسير هذه الرابطة تفسيراً آلياً..بوصفه صلة عارضة ألية تحصل بين شيئين مختلفين تمام الاختلاف في الطبيعة والوظيفة.>>(48)

جماليات اللغة :

إنّ اللغة من حيث المستوى التركيبي أمر تحدث عنه القدماء منذ القدم ، ولقد عبر عن هذا المفهوم بمصطلح.<< النظم هذا الذي تداوله النقاد جيلا بعد جيل.>>(49) ولقد ارتبط بعبد القاهر الجرجاني أكثر مما ارتبط بغيره، ثم إن هذا المصطلح وإن ارتبط في ابتداء أمره بالحديث عن إعجاز القرآن فإنه فيما بعدُ صار آليّة عامة يستخدمها النقاد في تحليلاتهم للكلام الأدبيّ، ولم يكن أمامهم في الغالب إلا الشعر، فهو المحفوظ وهو ديوانهم، بل قد عدّوه مدخلاً لهم إلى فهم القرآن،

المنارة للاستشارات
www.mana

وكيف لا وقد كان هذا الشعر كما يقول ابن سلام <<علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه.>>(50)

ولما أصبح الأمر بهذا الشكل ، ظل الشعر له مكانة مرموقة ، وربما يطول بالمرء المقام لو أنه أراد بيان منزلة الشعر عندهم. ولكن الإشارة هنا تغني عن التطويل وإذ ذاك نقول: <<إن النحاة الأوائل لّما بدؤوا في بنيانهم النحويّة كان اعتمادهم فيه على الشعر في الغالب الأعم. >>(51) وثمة في هذا الشأن نص أراد فيه صاحبه ابن نباتة أن يعزو للشعر كل فضل فقال: إن<<من فضل النظم أن الشواهد لا توجد إلا فيه، والحجج لا تؤخذ إلا منه؛ أعني أن العلماء والحكماء والفقهاء والنحويين واللغويين يقولون: قال الشاعر، وهذا كثير في الشعر، والشعر قد أتى به، و على هذا فالشاعرُ هو صاحب الحجة، والشعر هو الحجة.>>(52) ، فالشعر مع ما لهُ من كبير المنزلة لم ينفرد بالمنزلة أو بالاختصاص. وهذا ما عبّر عنه علي بن سليمان اليمنيّ (ت 599ه) حين قال: <<أمّا الشعر في نفسه فهو الدرجة العليا من الكلام كله بعد الكلام الإلهيّ والكلام النبويّ، فهما فوق كل كلام، وفوق كل ذي فوق لبلاغتهما وشرف المتكلم بهما، وما سوى هذين من كلام العرب فيكون على مرتبتين: عُلياها النظم لما جمع من البلاغة والوزن والتقفية، وسفلاها النثر لتعرّيه من الوزن والقافية.>>(53) فالشعرهو المادة الأكثر غزارة، وطبيعيّ إذاً أن يكون الاستشهاد به أكبر وأعظم، ومن ثم لابد أن نشير إلى أن الحديث عن خصائص الشعر التركيبية لا يتم في معزل عن الخصائص الدلالية، ومن ثمة فإن الفصل بينهما ليس إلا فصلاً درسياً؛ لأن التركيب هو الذي يولّد الدلالة، وكذلك فإن قسطاً غير هيّن من دلالات الشعر المتميِّزة له ارتباط وثيق بطريقة رصف الكلمات بعضها إلى بعض.

وبناء على ما سبق ذكره يظهر أن للغة تجليات جمالية، وأن ما يصطلح عليه اليوم بـ"الأدبية" ينبغي ألا يطمس الفروق التعبيرية بين مختلف الأجناس الأدبية. فعلى الرغم من اشتراكها في صفات توحد بينها، فإن الاختلاف بينها يظل <<جوهريا

المنارة للاستشارات
www.mana

بدونه تخفق تلك الأجناس في أداء رسالتها الإنسانية التي تشترك فيها جميعا بتوافر الأداة اللغوية الخاصة بكل منها.>>(54)

إن النظر إلى الشعر بوصفه جملة من الثوابت والمتغيرات، أو المكونات والسمات النصية المتحققة، يجعله مكونا نصيا خاضعا للتحول المستمر.فهنا<<لا يوجد جنس أدبي يؤول إلى ما يمثل مجال عناصره الضرورية فقط؛ فهو لا يتحدد إذن بثوابته وحدها. إنه يمتلك حقلا هائلا من الإمكانات المتنوعة والمتغيرة والمتعارضة أحيانا.>>(55) ومع ذلك فالقول بماهية الشعر لا يتناقض مع التغيرات الهائلة التي خضع لها هذا الجنس من التعبير الأدبي، ذلك أن <<الشيء، أعني ماهيته الثابتة، لا يعرف إلا من خلال تغيراته" فالماهية يمكن تفسيرها بأنها مجموع أو مصدر الإمكانيات القائمة في الشيء، كما يمكن تفسير التغيرات (أو الحركات) بأنها تحقق الإمكانيات الكامنة في الماهية أو خروج هذه الإمكانيات إلى الفعل.>>(56) ويبدو للمرء أن ثمة من العلماء من أدرك ما للشعراء من امتياز. وقد يكفي أن نقرأ كلام الخليل الذي يرى فيه أن <<الشعراء أمراء الكلام، يصرّفونه أنى شاؤوا ويجوز لهم مالا يجوز لغيرهم.>>(57) وتصريف الكلام ههنا عنوان كبير تدخل فيه أشياء كثيرة لابد أن حرية التركيب واحدة من أهمها.

فالشاعر يعي العالم جمالياً، ويعبر عن هذا الوعي تعبيراً جمالياً، ومن هنا كان الشعر <<بنيةً لغوية معرفية جمالية، وتحليل بنية اللغة الشعرية يسمح بالكشف عن حيازة الشاعر الجمالية للعالم، أي يسمح بالربط بين اللغة والرؤيا، وإذا كانت اللغة في النثر العادي، أو العلمي، وسيلة للتعبير المباشر عن مقولة نرغب في إيصالها أو توضيحها، فإن اللغة في الشعر غاية فنية بقدر ما هي وسيلة تؤدي معنى، وتخلق فناً .>>(58) والشاعر الحق هو الذي <<يدرك أن للغة قوانين ونظماً لا تكون اللغة إلا بها، ولا يتمكن من التواصل مع الآخر إلا من خلالها، ولكنه يفطن في الوقت نفسه إلى أن اللغة تسمح من حيث تشمس، وتبيح من حيث تحجر وتحرم فالنفاذ من الممنوع إلى المباح به يتميز الشاعر عن الشاعر.>>(59)

المنارة للاستشارات
www.mana

إنّ علماء العرب لم يجمدوا اللغة في قوالب جاهزة بل قاموا باستقراء نصوصها، وذلك بوضع مفرداتها في الاستعمال، بما تقتضيه قواعد تراكيبها، فأغنوا اللغة بالمفردات والمصطلحات وأساليب التعبير، وأصلوا مهمة اللغة في خلق المعرفة اللغوية ونشرها، والتي تكشف عن سلامة النطق والتعبير وسهولة استخدام المصطلحات العلمية، وأثبتوا قدرتها على التعبير عن الفكر وما يطرحه من موضوعات، أو ما يبحثه من حقائق، <<فلو أن علماءنا المحدثين عمدوا إلى مثل هذا النهج لضمنا ثروة لغوية عربية تتناسب تماماً مع ما ينتجون من علم، أو يقدمون من فن.>>(60)

لقد كان طائفة من اللغويين والنحويين يحترفون تعليم اللغة ومقاييسها في الاشتقاق والإعراب، مضيفين إلى ذلك رواية واسعة للشعر القديم، ولم يكونوا يكتفون بالرواية وحدها فقد عنوا أشد العناية بشرح ما يرونه ودرسه وتبين خصائصه التعبيرية والأسلوبية ، وحقا كانت عنايتهم القوية تنصب على استنباط أصول اللغة العربية من الوجهتين الاشتقاقية والنحوية ، غير أنهم مع ذلك كانوا يعنون بتلقين الناشئة شيئا من الخصائص البيانية، يأتي ذلك عرضا في ثنايا شرحهم وعرضهم للقواعد اللغوية والنحوية ، << ومن يرجع إلى كتاب البديع لابن المعتز يجده يذكر الخليل بن أحمد في صدر حديثه عن التجنيس والمطابقة، ولعل ابن المعتز إنما كان ينقل عن الخليل المعنى اللغوي الأصلي للمطابقة.>>(61)

ومن هنا نجد اللغويين والرواة قد تعاملوا مع الشعر لغويا في الأساس ، ذلك لأنه يعتد به في الاستشهاد اللغوي وما يستشهد به ينتمي إلى زمان ومكان محددين سلفا ، والشاعر الأصيل << الذي تجيء لغته في شعره سليقة وطبعا، وهو بذلك قريب من البدوي الذي تتدفق اللغة على لسانه بلا تكلف أو تعمل ، أما ذلك الذي يجوّد شعره ويصنعه فإن دافعه لذلك من وجهة نظرهم هو ضعف سليقته وبعده عن الفطرة السليمة.>>(62) ولهذا نجد طرائق الشعر ليست على وتيرة واحدة، ولا على نسق واحد ، لأنه ثمة شعريات متعددة ، بتعدد الأنفس، <<

المنارة للاستشارات
www.mana

لأنّ الشعر وليد فضاءات متغايرة، ولذلك يكون ناجما عن الحالة الشعرية في العصر والمكان ، ويتميز الشعر في بيئة ما بالخيال، ويتسم في بيئة أخرى بالوعي، فيكون تعريف الشعرية في هذا المكان غيره في المكان الآخر ، ولذلك إنّ مصطلح الشعرية مرتبط ارتباطا وثيقا بالشعر نفسه،والشعر مادة متحولة بين لحظة وأخرى.>>(63) وهو ما يجعل مفهوم الشعر متغير غير قار ، متحول غير ثابت.

ومن جهة أخرى نجد أن اللغة حددت في أصوات مرتبة معلومة تشير إلى مفاهيم عقلية وحُدَّ الكلام بأنه << مؤلف من صوت وحرف ومعان ، وكيفية حصوله بجذب الإنسان الهواء بالحركة الطبيعية ، وحصره في قصبة الرئة ودفعه ، ومحاكاته بالحركة الإرادية للهواء الخارج بحروف تجذبها آلة اللهوات ، وهذه مركبة دالة بحروف اتفاق واتساق مع معاني فكر النفس بالمنطقية بقدر الهواجس الطارئة والخواطر السانحة والصواب المؤيد من العقل ، والأثر الحاصل في القلب.>>(64) ، هذه الأصول التنظيرية تنظر للغة من أضيق زواياها حيث تُغيِّب ما تشير إليه اللغة ، وترتِّبُ عليها تقرير فرضياتٍ أساسيَّة منها عند **سوسير** << أن الرمز شيء اعتباطي وهو كذلك من ناحيتين :فالدال شيء اعتباطي ؛ لأنه ليست هناك من علاقة طبيعية بينه وبين ما يدل عليه (وهو غير المدلول في هذه الحالة) بل هناك علاقة يقبلها الناس بحكم التقليد أو العرفإذاً اللغة ليست نظاماً من الأمور الجوهرية الثابتة ، بل من الأشكال غير المستقرة.>>(65)

فاللغة ما دامت محتوية ، لكل ما تحمله الثقافة من عناصر بما هي علامات ضمن نظام مركزي هو نظام العلامات اللغوية ، أي أن اللغة بما هي نظام للعلامات الدالة على مدلولات (صور سمعية تحيل إلى صور ذهنية) لا إلى العلم الخارجي،فغنها تمثل مصدر الوعي الذي يدرك جيّدا إبعاد هذا الحكم والفهم حيث أن هذا الفهم هو على " مستوى العلامة" << المفردة، لكن اللغة

المنارة للاستشارات
www.mana

نظام من العلامات التي تدخل في علاقات أكثر تعقيدا على مستوى " نظام" النحو ، وتزداد درجة التعقيد حدة حين تتجاوز حدود الجملة إلى النص>>(66)

وإذا أمعنا النظر في الدرس اللغوي العربي القديم (وهو قيامه على دراسة اللغة أثناء الاستعمال منذ بدايته) ، علمنا أن اللغة تؤخذ استعمالا لا قاعدة، وهذا ما ذكره السيوطي في كتابه (الإقتراح في علم أصول النحو) مشيرا إلى أن ما نطقت به العرب يعتبر الأصل في كل ظاهلرة لغوية؛ يقول: <<إذا أتاك القياس إلى شيء ما، ثم سمعت العرب قد نطقت فيه بشيء آخر على قياس غيره، فدع ما كنت عليه.>>(67) ويظهر من خلال ذلك قيمة الاستعمال وما تتداوله العرب في اللغة، وأهميته في تحديد أساليبها وطرق أدائها.

فالسليقة اللغوية مثلا تعني:أن العلاقة بين الكلمات تقوم على الطلب أو الاحتياج وعدم الاستغناء، وأن العربي يراعي منزلة المعنى وأهميته بين أجزاء الكلام ، فهو يقول وهو يفكر، ويفكر وهو يقول، فيرفع وينصب ويجر ويجزم بحضور الألفاظ، فعندما يحرك شفتيه، وينطق بالعبارة، فإنه يمارس اختيار على صعيد المعنى ، ثم تتوالى الكلمات محققة انسجام العلاقات المعنوية القائمة على مبدأ الطلب أو الاحتياج. وفي هذا الباب نجد هذا القول : << ألا ترى أنك إذا سمعت : أكرم سعيد أباه، وشكر سعيد أبوه، علمت برفع أحدهما ونصب الآخر، الفاعل من المفعول ولو كان الكلام شرجا واحدا لا استبهم أحدهما من صاحبه.>>(68) فالعربي القديم لما نشأ على الفصاحة، كانت ثقافته محدودة، ولهذا نجدها مرتبطة بالشعر،فإنه لم يكن يملك نزعة نقدية تؤهله للتمييز بين الحسن والقبيح غلا بعض ما حفظته كتب الأدب،والسبب في ذلك أن الدراسة النقدية لا تتأتى إلا في ظروف فكرية وثقافية.<< كان الفكر قبل

المنارة للاستشارات
www.mana

عصر التدوين غير قادر على أسلوب منهجي سليم في المقارنة والموازنة لاستخلاص عناصر الجمال وعناصر القبح.>>(69)

علاقة اللغة والكلام بالنحو:

وقف علماء اللغة عند الجمل وعلاقاتها المختلفة وتلاحم المعاني بينها فكلما اشتد التعلق كان وصل الكلام أشد لزوماً وأكثر اتساعاً وأوفر حظاً. وكلما قل التعلق كان قطع الكلام والاكتفاء به أشد لزوماً وأقرب مجالاً. وعلى هذا << أنّ التّراث النّحوي يُنقد على أساس موقفٍ يبدو لنا اليوم فيه خلط بين اللّغة والكلام. فما يدرسه النّحو هو من قبيل اللّغة و لا يمكن لـه أن يدرس إلاّ علاماتها ومختلف الطّرق المشتركة بين متكلّميها في استعمال هذه العلامات والتّأليف بينها وتكون حصيلة ما يُتوصّل إليه استعراضاً شاملاً لمختلف الأشكال والأبنية والتّراكيب الممكنة وتقديماً لدليلٍ (*Code*) مجرّدٍ من كلّ ميول المتكلّم واختياراته وبراعته، غير متضمّنٍ لما تفرضه عليه ظروف الكلام وملابسات الخطاب؛ أمّا الأدب فهو من قبيل الكلام وليس للنّحوي الأداة الكفيلة بضبط قواعده والإلمام بكيفية صنعه؛ ومطالبة النّحو بأن يفي بقواعده... معناه مطالبته بالخروج من العامّ إلى الخاصّ ومن المشترك القارّ إلى الخاصّ المتحوّل. وهذه مهمّة تتجاوز طاقته وتحوّله عن وجهة نظره.>>(70) وقد بدا هذا الإحساس بوجوب التآخي بين الكلمات باكراً في تراثنا الشعري عند النقاد ، فقد تحدثوا عن الكلمة المتمكنة والكلمة القلقة النابية ، ومن ذلك ما يروى عن أنه اجتمع النصيب وذو الرمة والكميت « فأنشدهما الكميت قصيدته: (هَلْ أَنْتَ عَنْ طَلَبِ الأَيْفَاعِ مُنْقَلِبُ) حتى بلغ قوله:

أمْ هَـلْ ظَعَائِنُ بالـعَلْيَاءِ نافعةٌ وإنْ تَكَامَلَ فيها الأنسُ والشّنَبُ

عقد نصيب واحدة ، فقال له الكميت: ماذا تحصي؟ فقال: خطأك ، باعدت في القول، ما الأنس من الشنب؟ ألا قلت كما قال ذو الرمة:

لَمْيَاءُ في شفتيها حُـوّةٌ لَعَـسٌ وفي اللّثاتِ وفي أنـــيابِها شَنَبُ

المنارة للاستشارات
www.mana

فانكسر الكميت .>>(71) وقد تجاوزوا هذا الأمر - أعني تمكن الكلمات في الجملة - إلى ضرورة مراعاة التآخي بين الجمل السابقة والجمل اللاحقة ، لأن الكلام في تداعياته المختلفة يفضي من كلمة إلي جملة تتعلق بها لنلج إلى جملة أخرى ذات علاقة بسابقتها ، وهكذا يتفرع ويتداخل الكلام ويفضي بعضه إلى بعض ، وقد نظر البيانيون أيضاً إلى وجوب التآخي بين الجمل ذات الصلة فتلفق وتضم إلى بعضها في لحمة نسب تحقق المعاني التي يومئ إليها المتحدث ، فيدرك منها المتلقي العلاقات الكامنة بين أجزاء الكلام المختلفة من خلال هذا التلاحم والتآخي. كما ينظرون إلى وجوب المباعدة بين بعض الجمل وقطعها عن سابقاتها حرصاً منهم أيضاً على المعنى والإفادة المرتجاة من خلال هذه الجمل.

وإذا كانت اللّغة كذلك، فإنّه يجب أن ننتبه إلى أنّها <<تحتوي على جوانب شديدة التّعقيد تتطلّب أكثر من منهجٍ وأكثر من وسيلةٍ لفكّ شفراتها وتحليل محتوياتها، وكشف مقاصدها، ولا يتسنّى لمنهجٍ واحدٍ أن يصف خصائص اللّغة وصفاتها أو يفسّر ظواهرها تفسيراً واضحاً يصيب كبدها، ومن ثَمَّ قسّم العلماءُ اللّغةَ إلى عدّة مستوياتٍ تحليليةٍ ليتمكّنوا من كشف محتوياتها وإظهار أسرارها ومعرفة مضمونها. وقد سلكوا في ذلك مناهج متعدّدة يهدف كلّ منهجٍ منها إلى وضع تفسيرٍ دقيقٍ لظواهر اللّغة، والمقصد من هذا إماطة اللّثام عن أبعاد اللّغة الدّلالية ومقاصدها في التّواصل الاجتماعي .>>(72) وعلى هذا الأساس استطاع علماء اللغة إعادة الاعتبار للكلام أو الأسلوب كموضوع للدرس اللغوي.

لقد تناول البلاغيون مصطلحات تتعلق بالكلام ، لأن الكلام: إما أن يتصل بعضه ببعض أو ينقطع فيكون هناك حاجز بين أجزائه ، وهو ما عرف عندهم بقضية الفصل والوصل ، يقول السكاكي: <<اعلم أن تمييز مواضع العطف من غير موضعه في الجمل كنحو أن تذكر معطوفاً بعضها على بعض تارة ومتروكاً العطف بينها تارة أخرى هو الأصل في هذا الفن.>>(73) فهم ينظرون إلى

المنارة للاستشارات
www.mana

القضية – إذن – من خلال العلاقات الآنفة الذكر حيث تشتد هذه العلاقة فيقتضي الأمر معها الوصل وتخف مما يقتضي الأمر معها الفصل ، غير أن الوصل عندهم في هذا الباب يتم بواسطة أداة تصل ما بين طرفي الكلام ولذلك نجدهم يعرفون الوصل بقولهم: <<الوصل هو عطف جملة على جملة أخرى ، والفصل ترك العطف .>>(74) ويقول القزويني: <<الوصل عطف بعض الجمل على بعض والفصل تركه .>>(75)

وإذا كانت الصلة بين جملة وجملة كأن تكون الجملة الثانية بالنسبة إلى الأولى مثل أحد هذه التوابع بالنسبة إلى متبوعه، فالأمر مختلف، ذلك لأن الجملة نوعان: جملة لها محل من الإعراب ، وأخرى ليس لها محل من الإعراب. أما التي لها محل من الإعراب فقد ألحقها البلاغيون بالمفرد ، لأن الجملة لا يكون لها محل من الإعراب إلا إذا وقعت موقع المفرد وعلى ذلك تكون علاقة الإعراب قائمة فيتسلط العامل عليها ، فإذا أردنا أن تدخل غيرها معها في الحكم عطفناها عليها فيكون تأثير العامل عليها كسابقتها ، يقول عبد القاهر الجرجاني: <<الجمل المعطوف بعضها على بعض على ضربين ، أحدهما: أن يكون للمعطوف عليها محل من الإعراب وإذا كانت كذلك كان حكمها حكم المفرد ، إذ لا يكون للجملة موضع من الإعراب حتى تكون واقعة موقع المفرد.>>(76)

اللغة والنقد:

من المعروف أن اللغة منظومة للتعبير والتواصل اللفظي تتضمن أربعة أنظمة أو مستويات هي :النظام الصوتي والنظام الصرفي والنظام النحوي والنظام الدلالي.والنقد اللغوي هو النقد الذي يتخذ من هذه الأنظمة مرجعيته في التحليل والتقويم والحكم .فالجودة بمقتضى هذا النوع من النقد تعني :سلامة التركيب النحوي ،وصحة البناء الصرفي والصوتي وصواب الدلالة. لأنه <<تحليل القطع الأدبية وتقدير ما لها من قيمة فنية.>>(77)

المنارة للاستشارات
www.mana

إذن فالنص ليس مجرد أفكار يتم التعبير عنها وبالتالي إيصالها إلى المتلقي بأية طريقة كانت ،ولذلك كان التعامل النقدي مع النص من هذا الباب ، باب التحليل اللغوي في المذاهب النقدية ، التي أسست على علم اللغة فعبد الملك مرتاض يقول :<< إن النظرية النقدية لو تتهاون في تدبير هذه المسألة اللطيفة فإننا لا نأمن أن يدعي احتراف الأدب كل من لا يحسن إقامة جملة واحدة من النسيج اللغوي، زاعما أن المدار إنما يكون على الأفكار لا على الألفاظ، مع أن الأفكار العامة، البسيطة تقع لمعظم الناس لأنها شائعة بينهم جارية في تفكيرهم، أما النسج اللغوي فهو صناعة واحتراف، ويضاف إلى خاصية الاحترافية ضرورة الإلمام الواسع بمتن اللغة ودقائقها، والتمكن التام من لطائفها وموالجها ونحوها وصرفها وبلاغتها .>>(78) لذا نرى أن الخروج على قواعد اللغة وقوانينها الصرفية غير جائز وتحت أي مسمى إذا كان يمس القوانين والقواعد اللغوية الرئيسية، أويخرج الأدب من وظيفته في الإبانة والإفصاح والتأثير، وينتقل به إلى اللَّبس والإبهام.كثرة الضرائر<< وقد تنبه إلى خطر ما يسمى بالضرائر الشعرية ابن قتيبة، إذ إن الشعرية إحدى آيات التكلف عنده .وقد جعلها من عيوب الشعر ناظرا في عيوب القافية، والعيب في الإعراب، وجاء حديثه عن الضرورة في ابتداء حديثه عن العيب في الإعراب.>>(79) ويعلّق على بيت امرئ القيس:

فاليوم **أشربْ** غير مستحقب إثما من اللهِ ولا داغل

ولولا أنَّ النحويين يذكرون هذا البيت، ويحتجون به في تسكين المتحرك يقول:<< المتحرك لاجتماع الحركات، وأن كثيرا من الرواة يرددونه هكذا لظنته: اليوم **أُسْقى** غير مستحقب .>>(80) فالإعراب الذي جعله الله وشيا لكلامها، وحليًة لنظامها، وفارقا – في بعض الأحوال - بين الكلامين المتكافئين والمعنيْين المختلَفيْن، هو الذي يفرق بين الخطأ النحوي ، والضرورة الشعرية.

المنارة للاستشارات
www.mana

اللغة والشعر:

إنّ الشعر يتخذ بعدا آخر غير نمط كتابته كفن شعري، وما يتميز به من وسائل تتعلق به كالوزن والقافية،

وهذا البعد جعله ينهج نهجا جديدا في التفكير والرؤيا، لأن الشاعر بقدر ما يستخدم اللغة، فهو يخدم اللغة، إنه يخدم " سكنه" <<إنّ الشعر يعيد اللغة قدرتها على تسمية الأشياء، ودعوتها، لأن توجد، فاللغة بفضل الشعر تستعيد قوتها على تأسيس الوجود.>>(81) ولهذا يمكن أن نعتبر اللغة الشعرية هي اللغة الأصلية، << هي قراءة للعالم وأشيائه، وهذه القراءة هي في بعض مستوياتها قراءة لأشياء مشحونة بالكلام ولكلام مشحون بالأشياء، وسر الشعرية هو أن تظل دائما كلاما ضد الكلام، ولكي تقدر أن تسمى العالم وأشيائه أسماء جديدة أي تراها في ضوء رؤى جديدة.>>(82) فالشاعر لايخرج عن أصالة اللغة وإنما يعطيها جمالا، لأن شعره يعيد قدرة اللغة كما سبق الذكر إذن فخصوصية استعمال الشعر للغة ،وتميز لغة كل مبدع من سواه لا يعني أنه يهدمها لأن <<ما يتغير هو معجم اللغة نظراً لارتباط اللغة بنشاط الإنسان الإنتاجي في كل مجالات عمله دون استثناء، أما نظام القواعد فلا يتغير إلا ببطء شديد نحو تحسين القواعد وأحكامها مجدداً. من هنا فإن كل عمل أدبي هو مجرد انتقاء من لغة معينة على أن لا يفهم الانتقاء أنه انتقاء من أشياء جاهزة بل هو خلق خاص.>>(83) فإذا كانت اللغة تتميز بألفاظ وجدت قبل الشعر (كمواد أولية)، والشعر ينسقها وينظمها بطريقة التركيب ، وطبقا للسياق الذي تردد فيه فللغة الشعر القدرة على الإيحاء بما لا تستطيع اللغة العادية أن تقوله: <<فالأدب يوجد بقدر ما ينجح في قول ما لا تستطيع اللغة العادية أن تقوله، ولو كان يعني ما تعنيه اللغة العادية لم يكن مبرر لوجوده.>>(84) .

المنارة للاستشارات
www.mana

الهوامش

(1)سورة الشعراء: الآيات (192 – 195).

(2) تمام حسَّان: اللغة العربية والشعوب الإسلاميَّة؛ بحث مدرج في: من قضايا اللغة العربية المعاصرة، إصدار المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، إدارة الثقافة تونس 1990 م ،عن مطبعة المنظمة: ص :74

(3) انظر: المرجع السابق نفسه: ص: 265 – 269

(4)محمد بن مصطفى بن الحاج: عالمية اللغة العربيَّة: ص :258

(5)علي الشابي: اللغة العربيَّة لغة القرآن ورسالة الإسلام: ص :61

(6)ابن خلدون، المقدمة ، تح : علي عبد الواحد وافي ، دار نهظة مصر ، القاهرة ، (د.ط) ، 2006 ،ص 3/ 112

(7) د.السيد، محمود أحمد (في طرائق تدريس اللغة العربية)- سورية/ دمشق- 1988، ص (11).

(8)ابن جني الخصائص، 1/ 33

(9)نعمة رحيم العزاوي ، النقد اللغويعند العرب حتى نهاية القرن السابع الهجري ، دار الحرية للطباعة ، بغداد ، 1978 ، ص : 11.

(10)محمود فهمي حجازي / المبحث اللغوي ، (د، ط) ، (دت) ، ص 33

(11)نعمة رحيم العزاوي ، النقد اللغوي عند العرب ، ص: 13

(12) عبد الملك مرتاض ، في نظرية النقد ، ص165

(13) محمد زكي العشماوي ، قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث دار النهضة العربية ، بيروت ، 1979م ، ص: 18

(14) محمد عبد الواحد، دراسات في النقد الأدبي في المغرب والأندلس ، دار الأندلس للنشر والتوزيع ، حائل ، المملكة العربية السعودية ط1 ، 1998 ، ص: 132

(15) -حلمي خليل :اللغة والطفل دراسة في ضوء علم اللغة النفسي ،دار النهضة ،1986،ص: 53

(16) -إبن خلدون :المقدمة،بيروت –لبنان-،مجلد1،ط1، 1992،ص643.

(17) المرجع السابق ، ص: 644

المنارة للاستشارات
www.mana

(18)-حلمي خليل: اللغة والطفل دراسة في ضوء علم النفس اللغوي ،دار النهضة العربية،1986،ص48

(19) المرجع السابق ، ص: 47

(20)أدونيس، مقدمة للشعر العربي، دارالعودة، بيروت ،ط.3، 1979، ص.126.

(21)مصطفى هدارة، دراسات في الأدب العربي الحديث، دار العلوم العربية، بيروت، ط. 1، 1990، ص. 245.

(22)مجاهد عبد المنعم، جماليات الشعر العربي المعاصر، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، ط. 1، 1997، ص. 41.

(23) أدونيس، مقدمة للشعر العربي، ص. 103.

(24) عبد الملك مرتاض، في نظرية النقد- متابعة لأهم المدارس النقدية المعاصرة ورصد لنظرياتها-،للطباعة والنشر والتوزيع الجزائر،ص.166.

(25)Roland Barthe le degré zero de l'écriture, Paris, 1972, p . 80

(26)عبد المالك مرتاض، في نظرية النقد ، دار هومة، الجزائر 2002، ص: 164

(27)نعمة رحيم العزاوي، النقد اللغوي عند العرب، ص:12

(28) عبد المنعمتليمة، مداخل إلى علم الجمال، عيون للنشر ، الدار البضاء، ط2، 1987، ص: 17

(30)عبد الملك مرتاض،في نظرية النقد، ص: 165

(31) أدونيس، صدمة الحداثة، ص. 282.

(32)الصاوي، محمد وجيه الإبداع في كتابات نجيب محفوظ: دراسة تحليلية. مستقبل التربية العربية، 1 (1)، 155- 186.

(33)أحمد الشايب – الأسلوب ، دراسة بلاغية تحليلية لأصول الأساليب الأدبية ، ط8 ، مكتبة النهضة المصرية ، مصر ، 1990م ، ص13

(34)سعد مصلوح – الأسلوب ، دراسة لغوية إحصائية ، ط1 ، دار البحوث العلمية ، الكويت ، 1980م ، ص23

(35)أدونيس، زمن الشعر، ص. 75.

(36)خالدة سعيد، حركية الإبداع، دراسات في الأدب العربي الحديث، دار العودة، بيروت، ط. 1، 1979، ص. 15.

(37)لطفي اليوسفي، الشعر والشعرية، ص. 94.

المنارة للاستشارات
www.mana

(38)جورج غريب، دراسات أدبية، دار الثقافة، بيروت، ط. 2، 1997، ص. 27.

(39) **الفارابي إحصاء العلوم ، تحقيق : علي بوملحم ، دار ومكتبة الهلال ، بيروت ،** 1996م .ص:15

(40)**إبراهيم مصطفى، إحياء النحو ، القاهرة ، ط** 2 ، 1413هـ. ص: 20

(41)د.القرعي، أحمد يوسف (لغتنا العربية وعاء ثقافتنا)صنعاء/ اليمن- ص (1-2)

(42) د.خليفة، عبد الكريم (عالمية اللغة العربية ومكانتها بين لغات العالم)- ص (2-4-5).

(43) ينظر :الإبانة عن أصول الديانة ، الأشعري،31.، والاقتصاد في الاعتقاد، الغزالي،ص:55، 54

(44) ينظر :التراث النقدي والبلاغي للمعتزلة، د .وليد قصاب، ص: 376

(45) ينظر :المغني في ابواب التوحيد والعدل، القاضي عبد الجبار المعتزلي، ص: 22 ، 16

(46) ينظر :اللغة والفكر، د .نوري جعفر، 124

(47) ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم الطبعة الرابعة، دار صادر، بيروت،2005 م.

(48) د .نوري جعفر ،اللغة والفكر ، ، ص : 12

(49)طبقات فحول الشعراء، قرأه وشرحه: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني القاهرة (د.ت) 1/ 24.

(50) السيوطي: الاقتراح في علم أصول النحو، ضبط وتعليق: أحمد سليم الحمصي، ومحمد أحمد قاسم، ط1 ص45.

(51) التوحيدي، أبو حيان: الإمتاع والمؤانسة، تح: أحمد أمين وأحمد الزين، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة 1939-1942، ج2، ص136.

(52) كشف المشكل في النحو والتصريف، ص454 نقلاً عن محمد العبد: الرواية والاستشهاد باللغة، عالم الكتب القاهرة 1972، ص140.

(53)حازم القرطاجني: منهاج البلغاء، تح: محمد الحبيب بن الخوجة، ط3 دار الغرب الإسلامي بيروت 1986،ص:143

(54)محمد غنيمي هلال، قضايا معاصرة في الأدب والنقد، ص17.

(55) Les genres littéraires), In : La théorie littéraire, p87

(56) انظر- Huit questions de poétique, p45 46

(57)حازم القرطاجني: منهاج البلغاء، تح: محمد الحبيب بن الخوجة، ط3 دار الغرب الإسلامي بيروت 198

(58)وهب رومية، شعرنا القديم والنقد الجديد، الكويت،المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1996 ص26-25. وانظر: خليل الموسى، الحداثة في حركة الشعر العربي المعاصر، دمشق 1991ص 97.

المنارة للاستشارات
www.mana

(59)حسين الواد، اللغة والشعر في ديوان أبي تمام، تونس، دار الجنوب للنشر، 1997،ص: 78

(60)شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ، ص: 29،28

(61)المرجع نفسه، ص: 29

(62)محمد عيد، تأويل مشكل القرآن، ص: 13

(63) أبو الفرج قدامة بن جعفر- نقد الشعر-تحقيق وتعليق د. عبد المنعم خفاجي- دار الكتاب العلمية- بيروت- لبنان-د-ط – دت ص: 64

(64)أبو حيان التوحيدي المقابسات ص 309 – 310

(65)د. محمد علي أبو حمده البنيوية وما بعدها ، ، دار عمار ، عمان ، الأردن ، 2005م ص: 18،19

(66)نصر حامد أبو زيد: مفهوم النص – دراسة في علوم القرآن، ص : 84

(67) ينظر السيوطي ، الإقتراح في علم أصول النحو، ص: 35

(68) أحمد ياقوت ، الكتاب بين المعيارية والوصفية، ص: 69

(69) محمد عبد المطلب، اتجاهات النقد ، ص: 79

(70)سعد الدين أبي محمد عبد الرحمن القزويني الإيضاح في علوم البلاغة والمعاني والبيان والبديع ، ط/ دار الكتب العربية(بدون تاريخ) ، ص:151

(71)أبو الفرج الأصفهاني الأغاني ، ط/ 5 مطبعة دار الثقافة بيروت ، سنة:1981 جـ1 ، ص:328 .

(72) محمود عكّاشة، التّحليل اللّغوي في ضوء علم الدّلالة، ص12.

(73) السكاكي مفتاح العلوم، ضبط وشرح: نعيم زرزور ، ط/ دار الكتب العلمية بيروت ، (بدون تاريخ) ، ص:249 .

(74) الجرجاني الإشارات والتنبيهات في علم البلاغة ، تحقيق: د. عبد القادر حسن ، ط/ دار مصر للطباعة (بدون تاريخ) ص: 121

(75) القزويني الإيضاح في علوم البلاغة والمعاني والبيان والبديع ، ط/ دار الكتب العربية(بدون تاريخ) ، ص:151 .

(76) دلائل الإعجاز ، عبد القاهر الجرجاني ، ص:174 ، 175.

(77) د .شوقي ضيف – النقد، ص: 8

(78) عبد الملك مرتاض، في نظرية النقد، ص: 175

المنارة للاستشارات
www.mana

(79) د .عبد الكريم حسين – نقد الشعر عند ابن قتيبة، ص: 141

(80) المصدر السابق، ص: 141

(81)معزوز عبد العالي، فلسفة الفن عند نيتشه وويدجر ، مجلة مدارات فلسفية، عدد 02، 208، ص: 60

(82)أدونيس ، الشعرية العربية، ص: 78

(83) الأسعد، محمد، 1980 ـ مقالة في اللغة الشعرية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ص 40.

(84) فضل، صلاح، 1978 ، نظرية البنائية في النقد الأدبي، مكتبة الأنجلو المصرية القاهرة، ص 316.

المنارة للاستشارات
www.mana